قصيدة إلى أمي لشاعر محمود درويش
دراسة فنية نقدية

اعداد
د. خديجة بوطيب عبد القادر بوطيب
ليبيا - جامعة الزنتان

Doi: 10.12816/MDAD.2020.88904
الاستلام: ١٤/ ٤/ ٢٠٢٠ القبول : ٣٠/ ٤/ ٢٠٢٠

المستخلص :

يمتزج في مسار قصيدة إلى أمي عند الشاعرمحمود درويش الواقع بالخيال، الأسطوري بالرمزي، ويتقاطع فيها الحكي الذاتي مع الموضوعي. وتمثل القصيدة أدب السجون،ألفها الشاعر ،وهو بين قضبان السجن، وجعل من تجربته محوراً رئيساً،طرح فيها علاقة الذات بالتاريخ.وجاءتْ مفعمة بالفقد والمعاناة،وهو يتحدى الظلام والظلم. ويبث روح المقاومة لدى شعبه.وجاءت القصيدة معبرة جمالياً عن الحركة الفنية، جسدتْ واقعاً اجتماعياً وثقافياً. وتهدف هذه الدراسة إلى رصد التصور القائم على العلاقات التقابلية،مما دفع الشاعر إلى الاهتمام بالبنى السطحية والعميقة للقصيدة،كما تؤرخ الواقع الفلسطيني ،وتحيل إلى ترتيب الذاكرة اليومية وإعادة إنتاجها، لتضفي هالة تحولات الأم إلى رمز أو أسطورة أو أيقونة.كما تقوم الدراسة على أكثرمن منهج نقدي، لتحليل النص الشعري واستحضار المتباعد والدلالي والقيم الفنية.

Abstract:

It mixes in the path of a poem to my mother when the poet Mahmoud Darwish is the fictional, legendary symbolic, and intersects with self-narration with the subject. The poem represents the literature of prisons, written by the poet, and he

is among the bars of the prison, and made his experience a major focus, in which he presented the relationship of the self with history. It spreads the spirit of resistance among its people. The poem is aesthetically expressive of the artistic movement, embodying a social and cultural reality. This study aims to monitor the perception based on opposite relationships, which prompted the poet to pay attention to the superficial and deep structures of the poem, as it chronicles the Palestinian reality, and refers to the arrangement of daily memory and its reproduction, to give the aura of mother transformations into a symbol, legend or icon. Study on more than one critical method, to analyze the poetic text and evoke the spaced, semantic, and artistic values.

المقدمة :

قصيدة إلى أمي[٢]، نظمها الشاعر محمود درويش، وهو في السجن الإسرائيلي،وأهداها إلى أمه،رسم فيها صورة الأم وعلاقتها بالأرض.وأوّل ما يتجلى الانتباه في هذه الدراسة،هو بناء القصيدة وتوزيعها على ثلاثة مقاطع. يفصل فيما بينها بياض، وجاءتْ هذه المقاطع مختلفة في الامتداد،ولم تجرِ على نسق متشابه.بدأ كل مقطع بالأم وانتهى بالأم عبرمسيرة الزمن. ويتحرك مسار النصّ بين ثلاثة أزمنة: ماضي كان له حضور طاغي وحاضر يعيش فيه الشاعر،ومستقبل يتطلع إليه.

ويتداخل مسار قصيدة إلى أمي عند الشاعرمحمود درويش الواقع بالخيال، الأسطوري بالرمزي، يتقاطع فيها الحكي الذاتي مع الموضوعي. يصوّر الشاعرواقعة زيارة أمه وهو في السجن ،وتحمل له القهوة والخبز (٣).وجسدّتْ واقعة السجن طقوس الهوية الفلسطينية،ورسمتْ الموروث الشعبي.واعتمد البناء على صراع: شخصّ الوجع الفلسطينيّ ووجع الوطن.

جـــاء عنـــوان قصـــيدة الأم كإضـــاءة لصـــورتها،وكانتْ مـــرآة للطفولـــة وأفراحها،واكتسبتْ الرؤية عند الشاعر أبعاد النفي والغربة والحزن،ومثلتْ الحنين إلى الذاكرة والأسرة بحثاً عن الوطن والحياة،وحلم العودة والخلاص.واستُحضرت صورة الأم بمفردة القهوة والخبز،وتمثّل الخبز عند محمود درويش بالصمود والإصرار والمدفع ورفض الاحتلال الإسرائيلي (٤).

وتمثل القصيدة أدب السجون،ألفها الشاعر،وهو بين قضبان السجن، وجعل من تجربته محوراً رئيساً،طرح فيها علاقة الذات بالتاريخ.وجاءتْ مفعمة بالفقد والمعاناة،وهو يتحدى الظلام والظلم. ويبث روح المقاومة لدى شعبه.وجاءت القصيدة معبرة جمالياً عن الحركة الفنية، جسدتْ واقعاً اجتماعياً وثقافياً.

وتهدف هذه الدراسة إلى رصد التصور القائم على العلاقات التقابلية،مما دفع الشاعر إلى الاهتمام بالبنى السطحية والعميقة للقصيدة،كما تؤرخ الواقع الفلسطيني، وتحيل إلى ترتيب الذاكرة اليومية وإعادة إنتاجها، لتضفي هالة تحولات الأم إلى رمز أو أسطورة أو أيقونة.كما تقوم الدراسة على أكثرمن منهج نقدي، لتحليل النص الشعري واستحضار المتباعد والدلالي والقيم الفنية.

واستهلتْ البداية بلفظ الأم مرتبطة بالخبز والقهوة ،ربط الشاعراستهلال القصيدة بالعنوان، ونمتْ نمو عضوياً، بدأ بالفعل المضارع (أحنّ) الذي تحدد بوقائع نفسية واجتماعية.استثمر الشاعر مفردات بسيطة، ولكنها تعطي دلالات رمزية، وتضيء الطبيعة الفلسطينية، وتجسد فعل يوميّ: ــ الخبز والقهوة ــ يقومن به الأمهات.وظل الشاعر يحوم بين الأم وفلسطين، وأسس منهما بنيّة جدلية، تعتمد على الحضور والغياب الحرية والسجن ، الحبّ والفقدان .

وجاءتْ صورة الأم مرتبطة برائحة القهوة وطعم الخبز، بوصفهما وعيّاً بالذات.ومن هنا نرى أنّ مفردة الأم جاءتْ في سياق لايعبر فقط على الحنان والعطف اللذين يفتقدهما الشاعر، إنّما هي البديل المنشود لكل الآلام التي يعاني منها، وتحمل طاقات رمزية ،على هذا النحو:

" أحن إلى خبز أمي
وقهوة أمي

ولمسة أمي..
وتكبر في الطفولة
يوماً على صدر يوم
وأعشق عمريّ لأنّي
إذا متُ،
أخجل من دمع أمي! "ص٣٢

و نرى كيف عبرالشاعرعن إحساسه بالماضي، وتذكره بحميمية وألفة بوصفهما امتداداً للحاضر،وكشفتْ ذاكرة الطفولة على تحديد معالم الأم .جاء احتواء حنان وعشق الأم رمزاً لأرض فلسطين ،وتحمل صورة الأم دلالة الحياة المتجددة .ونقلتْ الشاعرمن منفى السجن إلى الشعور بالحرية . ونرى هنا كيف ينقل الشاعرمفهموم الحبّ من إطار العلاقات الخاصة إلى إطارالكفاح المشترك للجميع من رجال ونساء(٥).

وولّدتْ الأفعال " أحنُ ، أعشق ، أخجل "، تفاعلاً بين الحنان والعشق والخجل. كما كوّنتْ علائق بين الأم والشاعر،وهذا الإلحاح كثف صورة الأم ،وعكس الواقع الذي يعانيه الشاعر.

بينما بدأ المقطع الثاني بهذا الاستجداء بالأم " خذيني، إذا عدتُ يوماً " ص ٣٣. استجداء الأمل والفرح والحرية .وجاء الاستجداء مرتبطاً بإذا الشرطية،التي تكون ظرفاً للزمان المستقبل، والعلاقة بينه وبين المستقبل، متعلقاً بالجواب ـ العودة ـ ،ومن هنا نرى كيف تخلّص الشاعر من فناء السجن ،وكيف صوّر أمه بصور تعكس الانفعال الشديد والحاجة الماسة لها.

" خذيني، إذا عدتُ يوماً
" وشاحاً لهدبكِ
وغطّي عظامي بعشب
تعمّد من طهركعبك
وشُدّي وثاقي ..
بخصلة شعر..

بخيط يلوّح في ذيل ثوبك.." ص ٣٣

وتعبر الصور المتراكمة عن حركية النصّ وهي : "وشاحاً لهدبك"، مجازاً لدموع الأم ،وشبه تغطية جسمه بعشب ارتوى وستوى من كعب أمه، لتعبر عن استعارة مكنية حذف المشبه وهو الفخر، وترك شيئاً من لوازمه الكعب، كذلك توحي بكناية عن العلو والسؤود.وكأنّ تستعيد الصورة الحديث النبوي الشريف،" الجنة تحت أقدام الأمهات " (٦)،وجلتْ العلاقة بين الصورة الأولى وشاح الأهداب ـ العيون ـ الذي يرمز إلى الدموع ، بينما توحي صورة الغطاء من سيل عمّد العشب إلى غزارة الماء، ومن هنا تضمن وحدة الدلالة رمز الخصب والعطاء والحياة.ونرى هنا الصور الشعرية قائمة على البلاغة التقليدية.

كما جاء الوثاق بخصلة شعر وذيل ثوب الأم، ليكشف عن العودة إلى الأصل الأم والالتصاق بها. تنبى الصورة من عناصر تمثل الاحتواء والاحتضان والتداخل بالأم. ويكتمل المشهد بصورة من أسطورة إعادة الحياة ، ويستعيد الشاعر طقوس الموت والحياة ،حيث يُلمح رمز أيزيس التي أعادت الحياة لزوجها أوزوريس .

و تتمثل الصورة في بعدها الرمزي ،وهو البعث والحياة ،وكأنّ عند لملمت الأم من الشتات ،تدب الحياة فيها من جديد.وهكذا نرى كيف استلهم الشاعر الموروث والواقع،وجاءت الصورة محكمة البناء، قدمت معادلاً شعرياً،عالج قضية الغربة والحرية.

وتؤسّس صورة التالية، بوصف الشاعر إلهاً ،وهوحلم الشاعر، ليكسرّ أسوار السجن، ،حلم الفلسطيني ، يتحدى الواقع، ليبعث أنموذجاً جمعياً ـ يحوّل الأم إلى أسطورة الخصب والحياة ،هكذا استطاع الشاعر توليد العلاقات الدلالية، فالشاعر والأم الوطن هما: ذات واحدة،ضمن رؤية شاملة، ـــ ويفيد التقديم والتأخير في "أصير إلهاً ، إلهاً أصير" إلى الكيفية التي تمت بها هذه العودة.

ونلمح كذلك رحلة العودة إلى الوطن،كم هي شاقة ومضنية.وخلق التحوّل ـ إله ـــ هذا الامتداد الرمزي الذي توسّع مداه.وبلغ ذروته بلمس الشاعر لقلب الأم. بذلك

استطاع النفاذ إلى أعماق أمه. ونرى كيف أنّ اللغة الشعرية،وظفتْ الموروث الشعبي والأسطوري،وساعدهذا التمثيل في توسيع الأفق الفني لدى المتلقي.

وعكس تصوّر هذه المقاطع بكاملها، صراع الإنسان الفلسطيني تجاه الحياة ،وما نجم عليه من تفكيك عرى الأسرية :

عساني أصير إلهاً
إلهاً أصير..
إذا ما لمستُ قرارة قلبكِ!

وتجلّى الحنين إلى الأم في المقطع الثالث عبر جدلية الموت والولادة ،وجاءت صورة نارالتنور ــ بوصفها نار مقدسة ـ، وتتضمن أشعة الشمس جو طقوسي، وتوحي بمخاض ولادة الحياة.كما ترمزإلى الانصهار الفلسطينيّ تحت قيود الاحتلال، ثم يشرق ضوء الحق، ويبعث جيلاً جديداً.

بينما يثري رمزالوقوف بجانب الأم أثناء صلاة النهار، نمو الصورة، حيث يوحي بالقرابين التي تقدم من أجل أنْ يستمرنورالصباح ـ الحياة ـ ،تتداعى هذه الصور ،لتعبرعن معاناة الشاعروضعفه ، لذا يطلب نجوم الطفولة التي تفيد بتحول الوهن إلى حلم وعلووأمل، وتتكامل الرموز،لتمنح الرؤيا طاقة شعرية على هذا النحو:

ضعيني، إذا ما رجعتُ
وقوداً بتنور نارك..
وحبل غسيل على سطح دارِكِ
لأنّي فقدتُ الوقوفَ
بدون صلاة نهارِكِ

وينطلق الشاعرمع طالبي الحرية ويحلق مع العصافير إشارة إلى الثورة القادمة التي تهدم جدران القيود، وتحلق فوق سماء فلسطين، ويسترسل الشاعر في سرد ذكريات مرتبطة بالطفولة ، لذا يلّح بالرجوع إليها لأنّه يستمد منها القوة،وتتكامل الصور في رصد واقع الصراع الذي يعيشه الفلسطيني .وتوسع مدلول الأم ليشمل

كل أرض فلسطين،يتداخل الماضي بالحاضر والمستقبل، ليبعث الرؤيا ويرسم الحلم :

هَرِمتُ، فردّي نجوم الطفولةِ
حتى أشاركُ
صغارَ العصافيرِ
درب الرجوع..
لعشّ انتظاركِ! " ص ٣٣،٣٤.

وهكذا نقف على البناء الفني للقصيدة ،التي جاءتْ في وحدة متكاملة ،تشكل علاقات متداخلة.وكوّن إيقاع الصورة الإطار **من بحرالمتقارب**،تقارباً في الكلمات وموسيقا صاخبة بالحركة، وهي تماثل حركة الوطن في سعيه للتحرر.وخلق تكرارها حرية أكبرفي التعبير،واختلفتْ بنية التفعيلة في الطول والقصر، نتيجة الانفعال والتوتر.

وتصف حركة الأفعال: أحن، تكبر، أعشق، خذيني،أشارك ،بالتداعي والتذكروالانتقال من الماضي إلى الحاضرمن الحاضرإلى المستقبل، كذلك من الظواهرالتي ساهمت في بناء الصورة، هي علاقة الفعل بالأشياء في النصّ، و تتركز على التحويل من حال إلى آخر، والتقدم من زمن إلى آخر.و تمثل القصيدة تجربة حزينة حافلة بحالة الاضطراب والتمزق.

كما استعان الشاعربالرمز،ساهم في البناء الفني ،وجسدّ استدعاء الباطن واستبطان الذات. وتظهرصورة الأم حقيقة ورمزاً وأسطورة،وترتقي إلى الذاتي و الشمول ، ولعب السجن دوراً أساسياً في نضج تجربة الشاعر، تتصارع فيها صورة الأم بين الحب الحقيقي والحبّ الوطني،مزج الحبّ بالظلم والقهر والفقد والأمل والموت والبعث والوطن .تشكلت بعض الصورمن طرفين متلازمين وهما: لمسة أمي ولمسة قرارة قلبها:

ولمسة أمي.. وتكبر في الطفولة يوماً على صدر يوم.(٣٢).
إلهاً أصير.. إذا ما لمستُ قرارة قلبكِ!(٣٣).

قامت الصورعند الشاعرعلى نسق التوازي والتكامل على هذا النحو:

إذا متُ،أخجل من دمع أمي! "ص٣٢.
خذيني، إذا عدتُ يوماً "ص٣٣.
" ضعيني، إذا ما رجعتُ" ص ٣٣.

وتحمل تلك المقاطع هموم ذاتية وجماعية. وترصد حركة النضال الفلسطيني، ما يسترعي الانتباه ظاهرة توظيف الشاعر لعناصروألوان مختلفة وهي: الأسود الأبيض،الأخضر،والأحمر، والبني من الأرض والشمس والناروالعصافير والماء، لترسم الواقع الفلسطيني بكل تناقضاته وأحلامه وهمومه وهويته وأرضه.

الهوامش:

١ـ انظر: عماد علي سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، عرض وتوثيق وتطبيق، الأردن، دار المسيرة، ٢٠٠٩،ط١، ص٧٢.

وانظر: محمود درويش محمود درويش:رمز المقاومة في الوطن العربي ـ فلسطين:١٩٤١ـ ٢٠٠٨.

و انظر: إعداد ودراسة ،هاني الخير،محمود درويش، رحلة عمرفي دروب الشعر،الجزائر، دارفليتس للنشر والتوزيع،٢٠٠٨،ط١، ص١٠،٢٤.

ولد في١٣ مارس في قرية البررة في الجليل سنة ١٩٤١، ونزح مع عائلته إلى لبنان في النكبة ١٩٤٨، وتوفي بالولايات المتحدة إثرخضوعه لعملية القلب المفتوح ودفن بمدينة رام الله في الضفة الغربية.ويعتبر من أبرز الشعراء الفلسطنيين والعرب،وعُرف كأحد أدباء المقاومة،والتحمتْ قصائده بالقضية الفلسطينيّة حتى سماه البعض بشاعر الجرح الفلسطيني، له مايزيد على ٣٠ ديوان من الشعر والنثربالإضافة إلى ثمانية كتب.

ترجم شعره إلى عدة لغات.اعتقل أكثر من مرة من قبل السلطات الإسرائلية منذ عام ١٩٦١ بسبب نشاطاته وأقواله السياسية. من الشعراء الفكريين. والملتزمين،وأسس ورفاقه جماعة "شعراء المقاومة الفلسطينية" ومن سمات شعره وشعراء المقاومة عموماً: ــ أشعارهم حماسية الطابع،ــ وأشعارهم أقرب إلى البساطة في صورها وتراكيبها ،ويكاد شعرهم،يكون قريباً من الموسيقا الدراجة في الأغاني السابقة، ـ خاضوا غمار الحرب، ـ جعلوا الموضوع القومي والوطني والثوري مادة لشعرهم. وتأثر محمود درويش بشعراء التيار الرومانسيّ أمثال : على محمود طه، وإبراهيم ناجي، مما جعل شعره أكثر رقة، وأغنى بالأحلام التي قادته إلى حالة الثوري الحالم.

٢ـ محمود درويش، عاشق من فلسطين، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٦٩، ط٢.

٣ـ انظر: إعداد ودراسة ،هاني الخير، مرجع سابق،ص١٠.

وسأحكي القصة وراء أحنّ إلى أميّ. لمحمود درويش، حكاية وأغنية.

Https/www e7kky.com١،٢،٢٠٢٠م،

عندما أدخلتني السلطات الإسرائلية إلى السجن ،جاءتْ أميّ لزيارتي ومعها القهوة والخبز منعوها من ادخالهما وسمعتها وهي تجادل بكلّ ما أوتيتْ من قوة، لتوصل إليّ خبزاً خبزته بنفسها والقهوة اتي أعدتها لي ولما سمحوا لها بالدخول احتضنتني كطفل صغير، وهي تبكي فبدأتُ أقبل يديها كما لم أفعل من قبل. وعنذئد انهار الجدار الذي كان بيني وبينها،ثم غادرتْ ولم أكن قادراً على البوح لها بأحاسيسي. قررتُ الاعتذار لها بقصيدة كتبتها على قصاصة ورقة الألمنيوم وأخذتها معي خلسة عندما خرجتُ من السجن.،لتكون ذاكرة مشتركة . دخل محمود درويش السجون الإسرائيلية بين عامي (١٩٦١ــ ١٩٦٩).خمس مرات، لأسباب واهية لاتستحق الحجز.

٤ــ محمود درويش: يوميات الحزن العادي، بيروت،مركز الابحاث ــ منظمة التحرير الفلسطينية ، دار العودة ،١٩٨١، ط٢، ص ٧٤،٧٥.

يقول محمود درويش: " ماذا نقول لمن يطرح السؤال بهذا الشكل؟. ليس بوسعنا أنْ نطحن الأناشيد الحماسية والخطب الحماسية ونعجنها ونحولها إلى خبز. إنّ أخطر شيء هو أنْ يتحول الوطن .تحت الاحتلال الأجنبيّ إلى رغيف خبز.ولكن السئ أيضاً هو أنْ يدفع المواطنون الواقعون تحت الاحتلال إلى المجاعة في حالة الصمت العسكري والسياسي السائدة.

٥ــ انظر: إعداد ودراسة ،هاني الخير، مرجع سابق،ص٣٣.

٦ــ مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي: محمد عبد الرؤوف المناوي، ج٢، دارإحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٤، ص ٤٢١.